المحاضرة السابعة: عناصر أسلوب القرآن (الكلمة المفردة، الجملة، الجمل)

تمهيد

إن القرآن كما هو بليغ خارق من حيث أسلوبه وبيان معناه، فهو فصيح في غاية السلاسة في لفظه. والدليل القاطع على فصاحته هو عدم شعور قارئه بالسأم والملل، كما أن شهادة علماء البيان والمعاني برهان باهر على حكمة فصاحته لأنه لو كرر ألوف المرات فإنه لا يورث سأما ولا مللاً، بل يزيد لذة وحلاوة. ثم إنه لا يثقل على ذهن صبي بسيط فيستطيع حفظه، ولا تسأم منه أذُن المصاب بداء عضال الذي يتأذى بأدنى كلام، بل يتلذذ به وكأنه الشراب العذب.

أما عن الأسباب وراء تألق اللفظ القرآني فإن "إن القرآن قوت وغذاء للقلوب، وقوّة وغنى للعقول، وماء وضياء للأرواح، ودواء وشفاء للنفوس، لذا لا يملّ.. إنه حق وحقيقة وصدق وهدى[1].

أولا– اللفظة القرآنية

إن اللفظ المفرد هو جزء من التركيب، وهو لبنة في بناء النظم ولا شك أن له حسناً وقبحاً ذاتيين، فقد يكون لفظ أخف من غيره وأرشق، وقد يكون أجمل إيقاعاً وأحلى جرساً، وقد يكون أبعد من الحوشية والغرابة، وأدنى إلى الأنس والسلاسة، وقد يكون أبعد عن الابتذال والسوقية، وأقرب إلى الجزالة والرصانة، بل الفصاحة والجلالة.

وعن هذا التميز الذاتي للفظ المفرد يقول ابن الأثير: "أن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات، لأنها مركبة من مخارج الحروف، فما استلذه السمع منها فهو الحسن، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح".[2]

ولقد أطال ابن الأثير بعد ذلك الكلام على خصائص اللفظ المفرد وشروط الحسن فيه، فذكر من ذلك ما أورده ابن سنان الخفاجي فيما يتعلق باللفظة الواحدة من الأوصاف، وقسمها إلى عدة أقسام: "كتباعد مخارج الحروف، وأن تكون الكلمة جارية على العرف العربي غير شاذة، وأن تكون مصغَّرة في موضع يُعبر به عن شيء لطيف، أو خفيّ أو ما جرى مجراه، وألا تكون مبتذلة بين العامة، وغير ذلك من الأوصاف"[3].

---

[1]– بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ص 424 وما بعدها.

[2] – ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، مصر، ص 169.

[3] – المصدر نفسه، ص 172.

ومن تلك الأوصاف كذلك: دقة اللفظ في التعبير عن المعنى، وحلاوة جرسه وسهوله نطقه، وجمال إيقاعه، بحيث لا يتألف من حروف متقاربة المخارج، مما يجعله عسير النطق، ثقيلاً على اللسان. وذكر من ملامح الحسن في اللفظ المفرد جزالته، ولكن الجزالة لا تعني أن يكون اللفظ "وحشياً متوعراً، عليه عنجهية البداوة، بل أن يكون متيناً على عذوبته في الفم، ولذاذته في السمع"[1].

ويقدم ابن الأثير أمثلة عن ذلك من القرآن فيقول:

"انظُرْ إلى قوارع القرآن عند ذكر الحساب والعذاب والميزان والصراط وعند ذكر الموت ومفارقة الدنيا، وما جرى هذا المجرى، فإنك لاترى شيئا من ذلك وحشيَ الألفاظ، ولا متوعرا، ثم انظر إلى ذكر الرحمة والرأفة والمغفرة، والملاطفات في خطاب الأنبياء وخطاب المنيبين والتائبين من العباد، وما جرى هذا المجرى، فإنك لاترى شيئا من ذلك ضعيف الألفاظ ولا سفسفا"[2].

فمثال الأول وهو الجزل من الألفاظ، قوله تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**﴾. الزمر: 68-69.

وأما مثال الثاني: وهو الرقيق من الألفاظ، فقوله تعالى في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿**وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾. الضحى: 1-3.

وكذلك قوله تعالى في ترغيب المسألة: ﴿ **إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾.البقرة: 186. "وهكذا ترى سبيل القرآن الكريم في في كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة"[3].

ليس المقصود باللفظة القرآنية الكلمة المفردة، وإنما مكانة الكلمة في النظم القرآني المعجز لأن قيمة المفردات ليست ذاتية وإنما تعود قيمتها إلى مكانها من النظم المعجز الأخاذ، ومعلوم أن التحدي لم يحصل بالكلمة بل أقل ما حصل بسورة. ويظهر الإعجاز اللغوي في الكلمة القرآنية من عدة وجوه:

1-**الكلمة في القرآن** مسوقة في موقعها المناسب لتؤدي المعنى المراد وتتلاءم من الناحية اللفظية والمعنوية مع ما قبلها وما بعدها، وفق نظام صوتي عجيب ونريد بذلك "اتساق القرآن في حركاته وسكناته، ومدّاته وغنّاته، واتصالاته وسكناته اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا، يسترعي الأسماع ويستهوي

---

[1] ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ج1، ص185 .

[2] – المصدر نفسه، ص 186.

[3] – المصدر نفسه، ص 187

النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور"[1]. خذ مثالا لذلك قوله تعالى: ﴿**وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ**﴾. الفجر:1-5. فلو استبدلت كلمة الفجر بكلمة الصبح أو كلمة الوتر بكلمة الفرد أو كلمة الحجر بكلمة العقل لاختل حسن نظم الكلمات.

وتأمل أيضا كلمة يسر تجد أن الياء حذفت منها للانسجام مع كلمة الفجر، عشر الوتر، الحجر ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿**...ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**﴾. مريم:1-4. فلو تقدمت كلمة مِنّي على كلمة العظم لاختل النظم في الآيات ولأحسست بما يشبه الكسر في وزن الشعر.

2- **إن الكلمة القرآنية** مسوقة في موقعها المناسب بحيث تغطي بمدلولها ما تلقيه من ظلال المعنى المراد بكماله وتمامه مع ما فيه من إيحاءات ، ولو استبدلت بغيرها ما استفيد المعنى المراد. وقد تجد كلمة في القرآن الكريم تعبر عن معنى يعجز البشر عن التعبير عنه إلا بعدة كلمات .

خذ مثالا لذلك، كلمة استقاموا في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...** ﴾. الأحقاف:1. فقد جمعت هذه الكلمة الإتيان بالخير كله والبعد عن الشر كله.

3- **هناك بعض الكلمات** يظن القارئ أنها مترادفة ، فإذا تأملت استعمالاتها في القرآن رأيت بعضها استعمل في موطن والبعض الآخر في موطن آخر، وفي كل موضع يبلغ التعبير القرآني ذروته في حسن الصياغة ودقة التعبير .

خذ مثالا لذلك، كلمتي (هامدة) ، (خاشعة) استعملت في القرآن للدلالة على الأرض قبل نزول المطر وخروج النبات منها ، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ الحج:5.

ثانيا-الجملة القرآنية:

لقد أجمع الباحثون في الإعجاز القرآني أن سر الإعجاز هو بلاغة النظم التي تعتمد على وحدة النص والالتحام الموجود بين عناصره. لذا فإن دراسة الجملة القرآنية تتصل اتصالا مباشرا بدراسة

[1] - المصدر السابق، ص453.

المفردة القرآنية التي هي أساس الجملة ومنها تركيبها، وإذا كان علماء البلاغة يجعلون البلاغة درجات فإنهم يقرون دون جدل أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز ذاته. وللإعجاز فيها وجوه كثيرة[1].

قال ابن الأثير: "قد قدّمنا القول في شرح أحوال اللفظة المفردة وما يختص بها. وأما إذا صارت مركبة، فإن لتركيبها حكما آخر. وذاك أنه يَحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة"[2].

ثم يضيف: "واعلم أن صناعة تأليف الكلام تنقسم إلى ثمانية أنواع هي: السجع ويختص بالكلام المنثور. التصريع ويختص بالكلام المنظوم، وهو داخل في باب السجع، لأن الكلام المنظوم كالسجع في الكلام المنثور. التجنيس وهو يعم القسمين جميعا. والترصيع وهو يعم القسمين أيضا جميعا. ولزوم ما لا يلزم: وهو يعم القسمين أيضا. والموازنة وتختص بالكلام المنثور. واختلاف صيغ الألفاظ وهو يعم القسمين جميعا. وتكرير الحروف، وهو يعم القسمين جميعا".[3]

ثم يفصل ابن الأثير بالأمثلة ورود تلك الطرق التحسينية في نظم السور القرآنية بالأمثلة من الآيات والحديث النبوي، موازنا بينها وبين كلام العرب المشتمل على مثل هذه القضايا دون أن يرقى إلى مستوى بلاغة القرآن الكريم الذي جاء في أعلى درجات الكلام.

إذن ما سبق قوله في الكلمة القرآنية نقوله في الجملة القرآنية، وهو أن المقصود هو مكانة الجملة في النظم القرآني المعجز لا الجملة المفردة، لأن قيمة الجملة ليست ذاتية ، وإنما تعود إلى مكانها من النظم المعجز الأخاذ، لذلك أقل ما وقع به التحدي السورة لا الجملة ، ومظاهر الإعجاز في الجملة القرآنية كثيرة منها :

الأول : أنها مسوقة في موقعها المناسب لتتلاءم مع ما قبلها وما بعدها، وتنبئ عن حسن نظم الكلمات وتناسق حركاتها وسكناتها وهي غاية في الإحكام والترابط، وتجدها دائما مؤلفة من كلمات وحروف وأصوات يستريح لتآلفها السمع والصوت والمنطق، ويتكون من نظامها نسق جميل ينطوي على إيقاع رائع ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو اختلفت ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال.

ولهذا كان حفظ القرآن أيسر من حفظ سائر أنواع النثر. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ**﴾. القمر:36. فلو أخذنا كلمة (النذر) منفصلة عما قبلها في الآية لوجدنا ثقلا

---

[1]– ينظر: سامي محمد هشام حريز، نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا ص71 وما بعدها

[2] – ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، قدمه وعلق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ص 209

[3] – المصدر نفسه، ص 209.

في توالي الضمة على النون والذال معا لكن الكلمة جاءت في القرآن متلائمة تماما مع السياق يقول الرافعي تأمل مواضع القلقلة[1] في دال (لقد) وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا)، مع الفصل بالمد ، ليكون تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان ، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة ثم ردد نظرك في الراء من (تماروا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء)النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها فلا تجفو عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم اعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون (أنذرهم) وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في(النذر) .

الثاني :أن الجملة القرآنية تدل على معنى واسع يعجز عنه الناس بعبارات كثيرة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿**نَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾. النحل:90. فقد جمعت هذه الآية كل خير ونهت عن كل شر قال ابن مسعود رضي الله عنه : "إن أجمع آية للخير والشر في سورة النحل: (**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...**).

وقوله أيضا: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾.الأعراف:199. تأمل كيف جمع الله تعالى بهذا الكلام كل خلق عظيم، لأن في أخذ العفو صلة القاطع والصفح عن الظالمين.

الثالث: ومنها إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر الملموس، ثم بث الروح والحركة في هذا المظهر نفسه. استمع إلى القرآن وهو يصور لك قيام الكون على أساس من النظام والترتيب والتنسيق البديع الذي لا يتخلف ولا يلحقه الفساد، فيقول: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾.الأعراف:54.

إنه يصور لك هذا المعنى في مظهر الحركة المحسوسة الدائرة بين عينيك، وكأنها أمام آلات تتحرك بسرعة دائبة في نظام مستمر يعيها ويصورها الخيال والشعور.

[1]– القَلْقَلَةُ في علم التجويد : (أن ينتهي النطق بالحرف الساكن بحركة خفيفة، ولا يكون إلاَّ في حرفٍ شديدٍ غيرِ مهموس، وهي حروف: قُطبجد .